العمل الايجابي في ضوء مفهوم العقل الأخلاقي لدى الأستاذ بديع الزمان النورسي

د. حموم لخضر*

مقدمة:

ليس صدفة أن يكون الدرس الأخير الذي ألقاه الشيخ بديع الزمان النورسي رحمه الله قبل وفاته على طلبته، هو حول العمل الإيجابي البنّاء، الذي أكد فيه على أن وظيفتنا في الحياة هي العمل الايجابي البنّاء وليس العمل السلبي الهدام. و هذا كله في جو من الإخلاص و الصبر و الإيمان و التوكل على الله ، و عدم التدخل في مشيئته ، و نبذ الأنانية وحب النفس، و الإعراض عن مباهج وزخارف المدنية الجذابة ،و لعل صبره الجميل و ضبط نفسه جراء ما لاقاه من تعذيب و تنكيل و ظلم طيلة حياته لخير دليل على إيمانه بايجابيه الإنسان المسلم في كل الظروف .

لذلك تحاول هذه الدراسة البحث في المفاهيم النوراسية للعمل الايجابي من خلال التطرق لدوافع و أسس و غايات العمل الايجابي ،و ذلك في ضوء مفهومه **للعقل الأخلاقي المؤيد** بالإيمان و الذي يقي الإنسانية السقوط في أتون الوحشية و الحيوانية و المادية الفجة التي تبشر بها الحداثة الغربية ، ويرتقى بها إلى مرتبة السعادة الخالدة.

لقد كانت المرحلة التاريخية التي عاش فيها بديع الزمان النورسي متميزة بالصراع الحضاري بين الشرق و الغرب و الهجمة الاستعمارية على بلاد المسلمين ، هي معركة غير متوازنة بين حضارة المسلمين التي دخلت مرحلة الانحطاط و التدهور الفكري و المادي و العلمي و حضارة الغرب و هي في عنفوان تطورها العلمي و المادي و المبشرة بقيم التمدن و العلمنة المدمرة للثقافة الإسلامية ، و التي جعلت الإنسان المسلم يقبل على تقليد هذه الحضارة الجديدة دون وعي و دون تمحيص ،" وحوّل حاجاته غير الضرورية إلى ضرورية بما ابتلاه من تقليد الناس بعضهم بعضاً ومن التمسك بعادات مستحكمة فيهم [2] .

و يجمل الشيخ النورسي سبب تأخر المسلمين وتدني وسوء أحوالهم نتيجة العوامل التالية : 1- عدم مراعاة أحكام الشريعة الغراء 2- تصرفات بعض المداهنين تصرفاً عفوياً 3- التعصب المقيت في غير محله سواء لدى عالم جاهل أو جاهل عالم 4- تقليد مساوئ المدنية الأوروبية تقليداً ببغائياً [2] .

فالصراع القائم بين حضارة الغرب و حضارة المسلمين في تلك الفترة و ما حمله من تبعات اجتماعية و اقتصادية و فكرية و نفسية عاشه بديع الزمان بكل جوارحه و ملكاته الفكرية و نفحاته الإيمانية و عمل منهمكا في البحث عن الحلول التي تمكن الإنسان المسلم الخروج من أتون التخلف و التقليد و ضياع الإيمان و الابتعاد عن الدين جراء الانبهار أمام منتجات حضارة الغرب و انقياده الأعمى وراءها ، فكانت حياة بديع الزمان هذا الأستاذ الألمعي مثال الإنسان المسلم الإيجابي و أعماله و مآثره و رسائله و تجربة حياته الشخصية نموذجا عن العمل الايجابي الذي ينبغي للإنسان المسلم أن يقوم بها في كل الظروف ،لذا سنتطرق لدوافع التي جعلت من أعماله و حياته نموذجا و نبراسا للعمل الايجابي .

أولا : دوافع العمل الايجابي

1- نداء العصر : بين لحظة أبي حامد الغزالي و لحظة بديع الزمان النورسي

* أستاذ محاضر أ، شعبة الفلسفة، مخبر الفلسفة و العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة مستغانم، الجزائر.
hamoumiss@gmail.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن المتتبع لمجريات التاريخ في نهاية القرن الحادي عشر ميلادي و بداية القرن الثاني من جهة و نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين يلحظ أن هناك تشابها بين الظروف التاريخيّة و المصاعب و التحديات التي واجهت العالم الإسلامي ، أي دخوله في مرحلة الضعف و التأزم أي في فتـــرة التدهور والانحطاط ، يشهد على كل مرحلة عالمين فذين **حجة الإسلام أبي حامد الغزالي** (450-505هـ) الموافق لـ (1058-1111 م) **و بديع الزمان *سعيد النورسي*** (1307-1358 هـ) الموافق لـ (1889-1940)، فكلاهما عاش المرحلة و ما اتسمت به من تقليد و إتباع للبدع و العقائد الموروثة و دخول الفلسفة اليونانية في المرحلة الأولى و الفلسفة المادية في المرحلة الثانية و ما أحدثته من أزمة فكرية و عقائدية؛ نظرا لاختلاف الميتافيزيقية الدينية الإسلامية القائمة على**"الخلق من العدم "**، و الميتافيزيقا الفلسفية الغربية القائمة على **"لاشيء من لاشيء"**،حيث أرَّخ و شَخَّص كل من الشيخين لمرحلته العصيبة من خلال أزمة نفسية خرج كل واحد منهما مُبَيّنا الطريق إلى خلاص العالم الإسلامي **بأنوار قذفها الله في قلبيهما** لتُنِير لهما درب الإيمان و النجاة في الدنيا و الآخرة فانبرى كل واحد منهما ينير طريق المؤمنين في عصره، فكتب الغزالي" المنقذ من الضلال "و "إحياء علوم الدين" و كتب النورسي كليات رسائل النور ،و هما في ذلك يستجيبون لمقتضيات نداء روح عصرهم، كما هو الشأن في كل مرحلة في تاريخ البشرية.

فلحظة الغزالي كما يسميها الجابري لحظة انفجار أزمة الأسس في الثقافة العربية الإسلامية ، أدخلت الغزالي في مرحلة الشك حيث يقول: " ولم أزل في عنفوان شبابي (وريعان عمري) ، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجّة هذا البحر العميق ، وأخوض غَمرَتهُ خَوْضَ الجَسُور ؛ لأميز بين مُحق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيًّا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته، ولا ظاهريّاً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنـه فلسفته ، فلما خطرتلي هذه الخواطر وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر ، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية ، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل. فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بـها على أمن ويقين ؛ ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله [تعالى] الواسعة ؛ ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلّم عن (الشرح) ومعناه في قوله تعالى: ((فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)) (الأنعام: 125)قال: ((هو نور يقذفه الله تعالى في القلب)) فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين ، ويجب الترصد له" [3] .

كذلك سيمُر الشيخ النورسي بمثل تلك الأزمة ،حيث يقول : "أنا لست شيخا أنا إمام كالغزالي والإمام الرباني، فأنا مثلهم إمام، فعصرنا عصر حفظ الإيمان لا حفظ الطريقة" [4]، و يضيف شارحا الأزمة التي مر بها ،" راجعت أول ما راجعت، تلك العلوم التي اكتسبتها سابقاً، أبحث فيها السلوة والرجاء. ولكن كنت - ويالللاسف- إلى ذلك الوقت مغترفاً من العلوم الإسلامية مع العلوم الفلسفية ظناً مني -ظناً خطأ جداً -أن تلك العلوم الفلسفية هي مصدر الرقي والتكامل ومحور الثقافة وتنوّر الفكر، بينما تلك المسائل الفلسفية هي التي لوثت روحي كثيراً، بل أصبحت عائقة أمام سموي المعنوي... وبينما كنت في هذه الحالة، إذا بحكمة القرآن المقدسة تسعفني، رحمةً من العلي القدير، وفضلاً وكرماً من عنده سبحانه. فغسلتْ أدران تلك المسائل الفلسفية، وطهرت روحي منها -كما هو مبين في كثير من الرسائل- إذ كان الظلام الروحي المنبثق من العلوم الفلسفية، يغرق روحي ويطمسها في الكائنات، فأينما كنت أتوجه بنظري في تلك المسائل فلا أرى نوراً ولا أجد قبساً، ولم أتمكن من التنفس والانشراح، حتى جاء نور التوحيد الساطع النابع من القرآن الكريم الذي يلقن (لا اله إلا هو) فمزّق ذلك الظلام وبدده. فانشرح صدري وتنفس بكل راحة واطمئنان[5].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تلك هي مرحلة ميلاد سعيد الجديد و الذي "تجرد من لباسه الفلسفي القديم ليلبس لباسا جديدا، ألا وهو لباس الحكمة! أو قل هاهنا نشهد موت بديع الزمان الفيلسوف وولادة بديع الزمان الحكيم" [6]، الذي أيقن أن المرحلة تقتضي شحذ الهمم و التصدي للمحن و المصاعب و ليس الاستكانة و الخمول ، بل كان ايجابيا في فهم عصره و تلبية ندائه لذلك يدعو لحفظ **الإيمان** لا حفظ **الطريقة الصوفية**.

2- إنقاذ الإيمان :

يرى بديع الزمان أن العالم الإسلامي كان مسرحا لتكالب القوى الاستعمارية الليبرالية المعادية للدين و الثقافة الإسلامية و كل مقوماته الشخصية، فمقاومة هذه الهجمة الشرسة يمر عبر تقوية إيمان الفرد أولا ،فالعمل الايجابي لدى الشيخ النورسي مشروطا بالإيمان، سواء كان عملا فكريا عقليا أو يدويا ،فهناك علاقة وطيدة بين العمل و الإيمان من جهة ، و بين ما يسميه العقل المؤيد بالوحي والقيم من جهة أخرى ، فالعمل الإنساني في كافة المستويات و في جميع الحقول مرهون بالقيم التي يعمل وفقها والغايات التي يتوخى الوصول إليها. وهذا معنى قوله : "نور العقل يشع من القلب"، لقد وعى الأستاذ النورسي "التغييرات الهائلة، التي أحدثها الصراع الجديد؛ فتوجّه إليها بحقائق القرآن، التي قدمها من خلال أصول المنطق العقلي الفطري، وعلوم ومعارف عصره"[7]

لقد كرس الشيخ حياته لخدمة القرآن و إنقاذ الإيمان، و اعتبر ذلك أهم قضية في ذلك الوقت ، وذلك من خلال دحض الفلسفة والفكر المادي الذي هبت على البلاد الإسلامية و انتشر فيها انتشار الطاعون في البشرية ومهددا إيمان الفرد و معتقداته ، و لقد كانت رسائل النور بمثابة دروس في غاية الإتقان و التدرج البيداغوجي و العلمي و التي تُمكن طلابها من الرجوع إلى كتاب الله و سنة رسوله و تقوية إيمانهم المهدد داخليا (النظام العلماني) و خارجيا (الفكر المادي و الإلحاد) ، فبديع الزمان يرى أن من الشروط الأساسية لنهوض العالم الإسلامي هي التوحيد و الإيمان ، لأنه " إنتسابٌ؛ لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلِّي الصنعةِ الإلهية فيه، وظهورِ آيات نقوشِ الأسماء الربانية على صفحةِ وجوده.أما الكفرُ فيقطع تلك النسبةَ وذلك الانتسابَ، وتغشى ظلمته الصنعةَ الربانية وتطمِس على معالمها، فَتنقُص قيمةَ الإنسان حيث تنحصر في مادّته فحسب؛.... كما أن الإيمان نورٌ وهو قوةٌ أيضا. فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيع أن يتحدى الكائناتِ ويتخلصَ من ضيق الحوادثِ، مستنداً إلى قوةِ إيمانه "[8] .

3- التقوى و العمل الصالح:

كانت الفترة التي عاش فيها الشيخ تتسم بالفوضى و الانحطاط الفكري و العقائدي للمسلمين و الدمار الروحي و الأخلاقي و كان هذا باعثا للشيخ للبحث في أسس التقوى و العمل الصالح باعتبارهما أهم أساسين بعد الإيمان ، ذلك أن " عملا صالحا وإن كان قليلا يغدو في حكم الكثير ضمن هذه الشرائط الثقيلة والظروف العصيبة " [9] ، فالعمل الصالح هو فعل الإنسان المأمور للحصول على الخير أما التقوى فهي الابتعاد عن المحرم وبالتالي تجنب الذنوب و السيئات .

إن الإنسان في نظر بديع الزمان مخاطب بجهات ثلاث " باعتبار قلبه بالتسليم والانقياد ، ومن جهة عقله بالإيمان والتوحيد وبالنظر إلى قلبه بالعمل والعبادة"[10] ، فالخطاب موجه إلى جوانبه الثلاث ؛ العقل، والقلب، والعمل ، فالدين ليس مقتصرا على الإيمان فقط ، بل العمل أيضاً هو الجزء الثاني من الدين ، و العمل هنا هو العمل الصالح ، حيث يقول الله تعالى ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [11]، فالقرآن هو دستور الإنسان المسلم و منهاجه للقيام بالعمل الصالح ، والإيمان ما وقر بالقلب و صدقه العمل ، و بذلك يرتفع الإنسان و يسمو في الدنيا و ينجو في الآخرة ، ذلك أن " أفعال الإنسان إنما تصدر عن تمايلات القلب والمشاعر وهي تنبعث من شدة تحسس الروح وحاجتها والروح إنما تهتز بنور الإيمان، فان كان خيراً يفعله الإنسان والا يحاول الانسحاب ،وعندئذ لا تغلبه النوازع والأحاسيس المادية التي لا ترى العقبى "[12] .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

و العمل الصالح نوعان: أحدهما إيجابي واختياري، والآخر سلبي واضطراري؛ ذلك أن الآلام والمصائب كلها أعمال صالحة و إن كانت سلبية و اضطرارية،"نعم ، أيها الإنسان ! إن فيك جهتين : الأولى : جهة الإيجاد و الوجود و الخير و **الإيجابية** و الفعل .و الأخرى : جهة التخريب و العدم و الشر و **السلبية** و الانفعال.فعلى اعتبار الجهة الأولى " جهة الإيجاد " فإنك أقلُّ شأناً من النحلة والعصفور وأضعفُ من الذبابة والعنكبوت. أما على اعتبار الجهة الثانية " جهة التخريب " فباستطاعتك أن تتجاوز الأرضَ والجبال والسموات، وبوسعِكَ آن تحمل على عاتقك ما أشفقن منه فتكسبَ دائرةً أوسعَ ومجالاً أفسح؛ لأنك عندما تقوم بالخير والإيجاد فانك تعمل على سعةِ طاقتك وبقدر جهدك وبمدى قوتك، أما إذا قمتَ بالإساءةِ والتخريب، فإن إساءتك تتجاوز وتستشري، وان تخريبَك يعم وينتشر [13].

فالإنسان في نظر الشيخ النورسي ينبغي أن تكون وظيفته هي " **العمل الإيجابي** البناء وليس السعي للعمل السلبي الهدام. والقيام بالخدمة الإيمانية ضمن نطاق الرضى الإلهي دون التدخل بما هو موكول أمره إلى الله "[14] ،كما أن العمل الايجابي هو ذلك العمل " البنّاء، وهو عمل المرء بمقتضى محبته لمسلكه فحسب، من دون أن يرد إلى تفكيره، أو يتدخل في علمه عداء الآخرين أو التهوين من شأنهم، أي لا ينشغل بهم أصلا."[15]

ثانيا :أسس العمل الصالح

1- الحكمة : ترك السياسة

يقول تعالى "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"[16] .و ذلك كان سبيل الشيخ النورسي في حياته و دعوته و مسيرته الحافلة بالأحداث ، و لما كان أعظم عمل في المرحلة التاريخية التي كان الشيخ شاهدا عليها هو إنقاذ الإيمان ، فكان من حكمته اللامعة ترك العمل بالسياسة ،" فرسائل النور نور، ولا يتولد ضرر من النور. وقد ألقت **بصولجان السياسة** جانباً منذ ثلاث عشرة سنة، "[17] و ذلك لما تُلحقه السياسة من ضرر بالإنسان و في خدمته للقرآن ، "إن القرآن الكريم قد منعنا من السياسة، لئلا تسقط في نظر أهل الدنيا الحقائق التي هي بنفاسة الألماس إلى مستوى القطع الزجاجية التافهة"[18] .

ذلك أيضا لخصوصية و طبيعة النظام السياسي العلماني الذي عايشه ، لأن صولجان السياسة لم يكن ليناسب صلاح القلب في تلك الفترة الحساسة ، المهددة بالإلحاد و الكفر الذي سرعان ما يتحول إلى نفاق يستوطن أعماق القلب بفعل الاكراهات الاجتماعية و النوازع الذاتية و مفاسد الفلسفة و العلوم المادية ، حيث يخاطب طلابه "وليقوموا بالعمل الايجابي دائماً. لان العمل السلبي ليس من وظيفتنا. ولان العمل السلبي في الداخل لا يُغتفر. ومادام قسم من السياسيين لا يلحقون الضرر برسائل النور، بل مسامحون قليلاً. لذا انظروا إليهم كأهون الشرين. ومن اجل التخلص من أعظم الشر فلا تمسوهم بضرر بل حاولوا أن تنفعوهم"[19] .

و يسمي الشيخ العمل السياسي بالجهاد المادي و إنقاذ الإيمان بالجهاد المعنوي و الذي من شروطه عدم التدخل بالوظيفة الإلهية. أي بما هو موكول أمره إلى الله تعالى ،"فنحن نقوم بالعمل الايجابي البناء بكل ما نملك من قوة في سبيل تأمين الأمن الداخلي. فالفرق عظيم بين الجهاد الداخلي والخارجي في الوقت الحاضر"[20] . فرسائل النور بنا تنطوي عليه من علوم إيمانية، تسعى لإصلاح سلوك الفرد و نشر الأخلاق و الخصال الحميدة التي تؤسس الأمن والنظام، هذا ما يؤكده أن الفتن العديدة التي عاصرها النورسي لم يشترك فيها طلاب النور .

و لا يتوان الشيخ في التأكيد على عدم مهاجمة الشيوخ و العلماء أصحاب البدع و التقليد و الذين يهاجمون طلاب النور ، بل أكد على معاملتهم بالحسنى و الصبر و توجيه السهام للخارج و ليس للداخل ، و تحمل هو عن طلابه المعارضات كافة ، حيث يقول " ولم افتر مقدار ذرة قط. ووفقت في

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تلك الخدمة الإيمانية بإذن الله. فالآن رغم وجود ملايين من طلبة النور، فأنني اسعي بالعمل الايجابي وأتحمل جميع مظالمهم و إهاناتهم و إثاراتهم"[21] .

2- العقل المؤيد بالإيمان أوانقياد العقل للقلب:

انطلاقا من قول الله تعالي في عجز كثير من الآيات القرآنية " أفلا يتفكرون" ، " أفلا يتدبرون "،" أفلا يعقلون" يرى الشيخ أن الإسلام يحث على العلم و النظر العقلي و طلب المعرفة ، بل إن " إن وظيفة الإنسان الفطرية إنما هي التكمل "بالعلم" أي الترقي عن طريق كسب العلم والمعرفة، والعبودية "بالدعاء"[22] . حيث أن ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو العلوم الحديثة، و باتحادهما تتكون الحقيقة الجلية لكل مؤمن ، أي ضرورة التوفيق بلغة المتقدمين بين العلوم النقلية من جهة و العلوم العقلية من جهة أخرى ، أو ما يسميه بديع الزمان العلوم المدنية ، حيث لا يستطيع الإنسان المسلم و في هذا العصر النهوض و التقدم و الرقي إلا بامتزاج تلك العلوم مع بعضها البعض ، وإلا بقي كالطائر بجناح واحد .فعلى المسلمين الانفتاح على علوم العصر المفيدة و فتح باب الاجتهاد لترك التقليد و الانكفاء على الذات و مسايرة تقدم العصر و الانخراط في منجزاته ، حيث يقول "إن معاصري – مع الأسف- وإن كانوا أبناء القرن الثالث عشر الهجري، إلا أنهم تذكار القرون الوسطى، من حيث الفكر والرقي، وكأنهم فهرس، ونموذج، وأخلاط ممتزجة لعصور خلت – من القرن الثالث عشر الهجري-، حتى غدا كثير بديهيات هذا الزمان مبهمة لديهم"[23] .

فالإنسان في الكون مناط بالتوحيد و الإيمان و كلما ازداد علما بأسرار الكون و الخلق ازداد إيمانا بالله تعالى و قدرته و جلاله ، لأن غاية كل العلوم في الدنيا هي معرفة الله تعالى و توحيده ، فالعقل" إن استعمل بسر التوحيد فانه يصبح مفتاحاً ثميناً بحيث يفتح الكنوز الإلهية السامية و الوفاً من خزائن الكون بينما إذا تخبط ذلك العقل في وحل الضلالة والكفر فانه يصبح آلة تعذيب ووسيلة إزعاج بما يجمع من آلام الماضي الحزينة ومخاوف المستقبل الرهيبة" [24] ، فأساس كل العلوم بل و معدنها و نورها هو معرفة الله سبحانه و تعالى .

و يؤكد الشيخ على التوازن بين علوم الدين و علوم العقل لأنه يحقق الاعتدال في سلوك و منهج الإنسان المسلم ، و إن حدث اختلال في أحد الجانبين يكون نتيجته إما التعصب أو السقوط في الشرك ، حيث أن "القلب الإنساني إذا انتزع منه الرأفة والرحمة والاحترام، فإن العقل والذكاء يسيطران - عندئذ- على زمام الإنسان، ويجعلان أولئك الناس كالوحوش الضارية والكلاب المسعورة " [25] .

و لذلك كله و مخافة أن ينفرد العقل بقيادة سفينة الإيمان إلى المهالك الدنيوية و الخسارة في الآخرة يرى الشيخ أن الأولوية للقلب على العقل "وهكذا فإن الترتيب الفطري للإنسان يرفع القلب إلى مقام الإمارة، ويجعل العقل وزيرًا له والحواس خَدَمَة، فإذا فسدت الفطرة تَأَمَّر العقل، وتمرد على القلب ومعانيه، وهذا فساد العقل الفلسفي العبثي، فإن فسدت الفطرة الفساد التالي للفساد الأول، الملازمَ له، الناتجَ عنه، تَأَمَّرَ الهوى بشهواته، وسَخَّرَ العقل لأغراضه، وطرد معاني القلب من القيم الإيمانية العالية"[26] .

3- أخلقة العمل الإنساني:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن العقل الأخلاقي لدى الشيخ النورسي هو ذلك التآلف العجيب بين قوة العقل الإنساني القائمة على التحليل و الاستدلال و الإبداع من جهة و القيم الأخلاقية من جهة أخرى، هذه الأخيرة هي التي تجعل من العقل الإنساني عقلا أخلاقيا مؤيدا بالإيمان. " فالحكيم أصلا لا يكتفي بالنقد المنطقي للآراء كما يكتفي به الفيلسوف، بل يتعداه إلى النقد الأخلاقي لها، لأنه لا ينظر إليها مجردة، وإنما مقترنة بالعمل، فيقوّمها بحسب أثرها العملي" [27] و هذا ما فعله الشيخ بعد أن نهض من سباته و ذهبت عنه الغمامة و تخلص من الآراء الفلسفية و أصبح سعيد الجديد ، حيث راح ينقد عصره من خلال النظام الأخلاقي السائد فيه ملخصا أهم الرذائل والصفات الأخلاقية السلبية، والتي جعلت المسلمين يعودون في أسلوب حياته إلى القرون الوسطى في:1- حياة اليأس الذي يجد فينا أسبابه وبعثه 2- موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية 3- حب العداوة 4- الجهل بالروابط النورانية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض 5- سريان الاستبداد، سريان الأمراض المعدية المتنوعة 6- حصر الهمة في المنفعة الشخصية .[28]

6-العاطل عن العمل : فالبطالة تولد الشقاء و الاضطراب و الضيق ، حتى لو كان الإنسان ثريا ، زيادة على الإمراض و العلل التي يولده الفراغ ، بل " العطل هو ابن أخ العدم .أما السعي فهو حياة للوجود ويقظة الحياة [29]، و من المفارقات أن العاطل عن العمل يتمنى أن يمضي الزمن بسرعة و أن ينقضي عمره في اللهو و المرح نتيجة الحياة المدنية الغربية و ما تتطلبه من تبذير و غفلة و سفاهة و إسراف ، " فجزاء البطالة التقاعس والذل و التسفل، كذلك ثواب السعي الغنى. وثواب الثبات التغلب "[30] .

7-الشر و التخريب : فالإنسان يستطيع هدم مائة بيت في يوم واحد على أن لا يستطيع تشييد بيت واحد في مائة يوم لأن طاقته في الشر و التخريب لا محدودة أما في الخير فهي محدودة و جزئية ، " إذا تخلى الإنسان عن الأنانية، وطلب الخير والوجود من التوفيق الإلهي وأرجَعَ الأمر إليه، وابتعد عن الشر والتخريب، وترك إتباع هوى النفس. فاكتمل عبداً لله تعالى تائباً مستغفراً، ذاكراً له سبحانه... ويكتسب قيمة " أحسن تقويم " فيحلق عالياً إلى أعلى عليين "[31] .

فمن متطلبات العمل الايجابي ترك الأخلاق السيئة لأن :" في ماهية المعصية -لاسيما إذا استمرت وكثرت - بذر الكفر .. إذ المعصية تولد ألفة معها وابتلاء بها ،بل تصير داء ،دواؤها الدائم نفسها ،فيتعذر تركها . فيتمنى صاحبها عدم عقاب عليها، ويتحرى بلا شعور ما يدل على عدم العذاب، فتستمر هذه الحال حتى تنجر إلى إنكار العذاب ورد دار العقاب "[32] ، لذلك يرى بديع الزمان أن العمل الصالح ينبغي له أن يتسم بالصفات الأخلاقية الإيجابية و التي تجد مصدرها في الأخلاق الإسلامية الفاضلة و التي مصدرها **القرآن الكريم و السيرة النبوية العطرة**، "إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام، والوحدة الاجتماعية" [33] و يقول صلى الله عليه "إنما بعثتُ لأتمم مكارمَ الأخلاق".

و من الفضائل الأخلاقية الأساسية في عمل كل مسلم يروم العمل الإيجابي في حياته ،يذكر الشيخ الصفات التالية :

1- الإخلاص : من أمراض هذا العصر المدمرة للإنسان الأنانية وحب النفس و ذلك نتيجة لمتطلبات الحياة المدنية البراقة و شهوات النفس و رغباته الجامحة ، "فأول درس من دروس رسائل النور الذي تلقيته من القرآن الكريم، هو التخلي عن الأنانية وحب النفس. حتى يتم إنقاذ الإيمان بالتقلد بالإخلاص الحقيقي. ولله الحمد والمنة"[34] .

2- **التوكل على الله**: " فيا أيها الإنسان البعيدُ عن التوكل! ارجع إلى صوابك وعُد إلى رُشدك كهذا الرجل وتوكّل على الله لتتخلص من الحاجة والتسوّل من الكائنات، ولتنجوَ من الارتعاد والهلع أمام الحادثات، ولتنقذَ نفسَك من الرياء والاستهزاء ومن الشقاء الأبدي ومن أغلال مضايقات الدنيا "[35]. و يشبه الشيخ المتوكل على الله وغيرَ المتوكل كَمثَلِ رجلَين قاما بحمل أعباء ثقيلةٍ حُمّلت على رأسهما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعاتقهما، فقطعا التذاكر وصعدا سفينةً عظيمةً، فوضعَ احدهُما ما على كاهِله حالما دخل السفينة ،و الأخر بقي يحمل أمتعته خائفا عليها .

3- المحبة و السلام و التعاون : فكما أن مشاعر المحبة و الود تولد راحة نفسية و جو من السعادة الطمأنينة ، فإن الخصومة و العداوة " تنطوي على عذاب وجداني وأي عذاب . بحيث يأخذ بخناق القلب والروح معاً ، فكل من يملك روحاً حساسة وهمة عالية يشعر بهذا العذاب "[36]. إن هذا الزمان" زمان الجماعة، وليس زمان الشخصية الفردية وإظهار الفردية والأنانية. فالشخص المعنوي الناشئ من الجماعة ينفد حكمه ويصمد تجاه الأعاصير"[37] .

4-احترام أهل الصنعة و التخصص : حيث يقول " لا يؤخذ بكلام من هم خارج إطار علم أو صنعة في مسالة من مسائلهما ، دارت حولها المناقشة ،حتى لو كانوا عظماء وعلماء وصناعاً مهرة في اختصاصاتهم . ولا يؤخذ حكمهم حجة في تلك المسألة، ولا يدخلون ضمن إجماع علماء ذلك الضرب من العلم " [38].

5- الاختلاف الإيجابي البناء و كيفية العمل مع المعترضين : ذلك في في أن يسعى كل محاور أن يثبت صحة وجهة نظره دون الطعن في أراء الآخرين و أن يكون مكملا لغيره لا لاغيا لهم يجعله ذلك ايجابيا في اختلافه ، لأن الاختلاف السلبي هو محاولة كل واحد إلغاء الآخر و تهديم حججه ، و بذلك يكون مبعثا للحقد والضغينة ،و بالتالي يعجز المختلفون عن القيام بأي عمل إيجابي بنّاء ، " إن تسعين في المئة من أحكام الشريعة مسلَّمات وضروريات دينية، شبيهة بأعمدة من الألماس.أما المسائل الاجتهادية الخلافية الفرعية، فلا تبلغ إلا عشرة في المئة. فلا ينبغي أن يكون تسعون عموداً من الألماس، تحت حماية عشرة منها من ذهب، ولا تابعة لها...فعوامل الاتفاق تسعة أضعاف عوامل الاختلاف، وهي جديرة بأن تجمع المسلمين ولا تفرقهم، ولا ينبغي لها إلا أن تكون كذلك "[39] . أما فيما يخص العمل مع المعترضين فينصح الشيخ بالابتعاد عن الحدة في الطباع و التهور وعدم مقابلة الإساءة بمثلها بل بالتسامح و روح المصالحة و الاكتفاء بالدفاع عن النفس فقط انم اقتضت الحاجة ذلك .

4-الصبر : فكما أن ثواب الصبر النصر، و خير دليل على ذلك حياة الشيخ الحافلة بمآثر الصبر جراء ما عاناه من تعذيب و سجن و نفى في سبيل غاية أسمى ، خدمة للإيمان و القرآن و مثل ذلك يكون المؤمن الايجابي، " إننا مكلفون بالتجمل بالصبر والتقلد بالشكر تجاه كل ضيق ومشقة تواجهنا وذلك بالقيام بالخدمة الإيمانية البناءة التي تثمر الحفاظ على الأمن والاستقرار الداخلي " [40] .

5- الوحدة و نبذ التفرقة : يرى الشيخ أنه لن يكون هناك اتحاد في ظل الجهل ، بل إن تمازج الأفكار و تلاقحها هو الضوء الذي ينير درب الوحدة و الإخاء للمسلمين ، كما الجهل سبيل الفرقة و التصارع ، "فيا معشر أهل الإيمان! إن قوتكم تذهب أدراج الرياح من جراء أغراضكم الشخصية وأنانيتكم وتحزبكم، فقوة قليلة جداً تتمكن من أن تذيقكم الذل والهلاك. فان كنتم حقاً مرتبطين بملة الإسلام فاستهدوا بالدستور النبوي العظيم:(الـمُؤْمِنُ لِلْـمُؤْمِنِ كَالْبُنيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضَاً) وعندها فقط تسلمون من ذل الدنيا وتنجون من شقاء الآخرة"[41] .

و بصفة عامة يلخص بديع الزمان أسس و مبادئ إنقاذ البلاد وإنقاذ الحياة الاجتماعية لأبنائها من الفوضى والانقسام في :

1- الاحترام المتبادل 2- الشفقة والرحمة

3- الابتعاد عن الحرام 4- الحفاظ على الأمن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

5- نبذ الفوضى والغوغائية، والدخول في الطاعة. [42]

و هكذا نخلص إلى أن العقل الأخلاقي لدى بديع الزمان و المؤيد بالإيمان و بكتاب الله و سنة رسوله والمستند إلى فعالية العقل الإنساني القائمة على التحليل و الاستدلال ، هذا العقل الذي أودعه مبادئه كليات رسائل النور" و التي تعتبر بمثابة برنامج تربوي و دعوي للعمل على أخلقة سلوك الإنسان في كل الأوقات ،خاصة في هذه الحقبة المعاصرة المتميزة بقيم العولمة الجارفة لكل الهويات و الثقافات و الأديان،لذلك على الإنسان المسلم أن يكون ذو أخلاق فاضلة كما علمتنا إياه رسائل النور ، حتى يكون ايجابيا في الحفاظ على هويته و قيم دينه و مجتمعه؛ و خير دليل على ذلك " عدد الذين أنقذوا إيمانهم برسائل النور، واندفع بها خطرهم عن المجتمع، بل أصبحوا أعضاء نافعين ايجابيين يزيد كثيراً على مائة ألف شخص. وهم يشغلون مناصب رفيعة في كل دائرة من دوائر الحكومة الجمهورية، ويمثلون مختلف طبقات الناس، وهم يعملون بتفانٍ وإخلاص كاملين وعلى أتم وجه من الصدق والنفع والاستقامة [43].

ثالثا :غاية و هدف العمل الايجابي

يركز بديع الزمان في كل رسائله و توجيهاته على الفرد ، لأن صلاح الأمة بصلاح الفرد ، و لنا في سيرة المصطفى صلى الله عليه و سلم و الذي قضى ثلاثة عشر سنة في المرحلة المكية يربي عدد قليلا من الأفراد على الإيمان و ما أن نجح في ذلك حتى أقبل على الإسلام آلاف الأشخاص في المرحلة المدنية ، فغاية العمل الايجابي لدى بديع الزمان تركز على الفرد أولا قبل المؤسسة ، لأن طبيعة المرحلة التاريخية تقتضي ذلك سواء داخليا أو خارجيا ، " فيصير كل فرد مسلم بحاله بؤرة للمقاومة تجاه التوسع الفردي المستند على الإيديولوجية" [44] .

و بصفة عام فإن غاية الإنسان المسلم في عمله الايجابي في الحياة بالنسبة للنورسي هي **أنوار تسعة** يجب على الفرد المسلم أن يضعها نصب أعينه للوصول إليها لأن فيها صلاح الفرد و جماعة المسلمين و هذه الأنوار يلخصها بديع الزمان في :

أولها: القيام بالشكر الكلي، ووزن النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية بموازين الحواس المغروزة في جسمك.
ثانيها: فتح الكنوز الخفية للأسماء الإلهية الحسنى بمفاتيح الأجهزة المودعة في فطرتك، ومعرفة الله جلّ وعلا بتلك الأسماء الحسنى.
ثالثها :إعلان ما ركّبت فيك الأسماء الحسنى من لطائف تجلياتها، وبدائع صنعتها وإظهار تلك اللطائف البديعة أمام أنظار المخلوقات بعلم وشعور، وبجوانب حياتك كافة في معرض الدنيا هذه.
رابعها: إظهار عبوديتك أمام عظمة ربوبية خالقك بلسان الحال والمقال.
خامسها: التجمل بمزايا اللطائف الإنسانية التي وهبتها لك تجليات الأسماء، وإبرازها أمام الشاهد الأزلي جلّ وعلا.
سادسها: شهود مظاهر الحياة لذوي الحياة، شهود علم وبصيرة.
سابعها: معرفة الصفات المطلقة للخالق الجليل، وشؤونه الحكيمة، ووزنها بما وهب لحياتك من علم جزئي، وقدرة جزئية، وإرادة جزئية.
ثامنها :فهم الأقوال الصادرة من كل موجود في العالم، وإدراك كلماته المعنوية – كل حسب لسانه الخاص – فيما يخص وحدانية خالقه، وربوبية مبدعه.
تاسعها: إدراك درجات القدرة الإلهية، والثروة الربانية المطلقتين، بموازين العجز، والضعف، والفقر، والحاجة، المنطوية في نفسك . [45] .

خاتمة :

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن حياة الشيخ بديع الزمان النورسي الحافلة بالأحداث و فكره المبثوث خاصة في **رسائل النور** ، يلخص تاريخ المسلمين الفكري خلال الفترة الممتدة ما بين الربع الأخير من القرن التاسع عشر و ستينيات القرن العشرين،و يشخص بذلك حالة الانحطاط التي وصل إليها المسلمين ؛و يكون هذا التشخيص **مهمازا** لكثير من الدراسات و لمشاريع الفكرية التي تنطلق منه لفهم أزمة الإنسان المسلم المعاصر .

يأخذ العمل الإيجابي أهميته لدى بديع الزمان من خلال إحياء إيمان الإنسان المسلم و بعث تعلقه بكتاب الله و سنة رسوله و ذلك بالعمل انطلاقا من الفرد مادام العمل على مستوى الجماعة متعذرا في تلك الظروف أي السعي إلى إخراج جماعة مسلمة متحدة تخرج من رحم كل فرد مؤمن ، و هنا تبرز فعالية و ايجابية عمل الشيخ ،لقد وضع برنامجا و منهاجا للفرد المسلم لكي يكون ايجابيا بناءا لا سلبيا هداما ، يبدأ من نفسه لينقذها ثم يمر لغيره ، هذا المنهاج مبثوث في كليات رسائل النور و في سيرته التي هي المثال الواضح على **شخصية فذة نورانية ايجابية** حتى في أحلك الظروف و أصعب المحن ، حيث لم يجنح لا للعنف و لا إلى الكراهية بل كان متسامحا، محاورا يدعو للوحدة و التآزر .

و لما كان أخطر شيء يهدد البشرية –حسبه- في هذا العصر هو الإلحاد والفوضى **والإرهاب العالمي** .فإنه ليس لدينا من حل سوى الاعتصام بحقائق القرآن و الاسترشاد بكليات رسائل النور باعتبارها تفسيراً لرسالة القرآن الكبرى، فالقاري ء المتمعن لها يحس كأنها كتبت للمستقبل أي حاضر العالم كله .و هذا ما يقوله المفكر طه عبد الرحمن عن الشيخ :"من هنا يظهر جليًّا أن البعد الذي يكتسبه إنتاج بديع الزمان لا ينحصر في تركيا ولا هو ينحصر في الأمة الإسلامية التي تفككت أوصالها وفقدت وِجهتها، وإنما يتعدى ذلك إلى العالم بأسْره لِيُنقذ الإنسان، خاصِيَّه وعامِيَّه ... ؛ ومن كان هذا عمله،فما أجدر به أن يُعدَّ في حكماء العالم " (46) .

المصادر و المراجع :

1-بديع الزمان *سعيد النورسي*، *الملاحق*، *ترجمة إحسان* قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر ، القاهرة ، مصر ، ط 6 ، 2011. ،ص 138.
2- بديع الزمان *سعيد النورسي*: صيقل الإسلام ، *ترجمة إحسان* قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر ، القاهرة ، مصر ، ط 6 ، 2011. ،ص 465
3-حجة الإسلام أبي حامد الغزالي : المنقذ من الضلال ، مراجعة محمد سعيد رمضان البوطي ، و الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ، تحقيق محمود بيجو ،دار التقوى للطباعة و النشر و التوزيع ،دمشق ، سوريا ، دار الفتح للطباعة و النشر و التوزيع ،عمان ، الأردن ، ص ص :30-32
4- بديع الزمان *سعيد النورسي* :سيرة ذاتية، *ترجمة إحسان* قاسم الصالحي، ص :868-869
5- بديع الزمان *سعيد النورسي* :سيرة ذاتية ،ص: 243-244.
6- د.طه عبد الرحمن : سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد، جمع و تقديم د. رضوان مرحوم ، المؤسسة العربية للفكر و الإبداع ، لبنان، بيروت،ط1، 201 ، ص 174
7- من مقدمة د.محسن عبد الحميد لإشارات الإعجاز لبديع الزمان *سعيد النورسي*، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز *ترجمة إحسان* قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر ، القاهرة ، مصر ، ط 6 ، 2011 ، ص 8.
8- بديع الزمان *سعيد النورسي*، الكلمات، *ترجمة إحسان* قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر ، القاهرة ، مصر ، ط 6 ، 2011 ،الكلمة الثالثة و العشرون ، ص: 349-352.
9- بديع الزمان *سعيد النورسي* : سيرة ذاتية ، ص 314
10- بديع الزمان *سعيد النورسي*، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز *ترجمة إحسان* قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر ، القاهرة ، مصر ، ط 6 ، 2011 ، ص 155 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

11- القرآن الكريم ،الآية (25) سورة البقرة .
12- بديع الزمان *سعيد النورسي*، صيقل الإسلام ، الخطبة الشامية ، ص 492
13- بديع الزمان *سعيد النورسي*، الكلمات، الكلمة الثالثة و العشرون ، ص 360.
14- بديع الزمان *سعيد النورسي* : سيرة ذاتية ، 776
15- بديع الزمان *سعيد النورسي*، اللمعات، *ترجمة إحسان* قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر ، القاهرة ، مصر ، ط 6 ، 2011 ، اللمعة العشرون، ص 229 .
16- القرآن الكريم ،الآية (125) سورة النحل.
17- بديع الزمان *سعيد النورسي* : سيرة ذاتية ، ص: 420
18- بديع الزمان *سعيد النورسي* : سيرة ذاتية ، 641
19- بديع الزمان *سعيد النورسي* : سيرة ذاتية ، ص 404
20- بديع الزمان *سعيد النورسي* : سيرة ذاتية ، 401
21- بديع الزمان *سعيد النورسي* : سيرة ذاتية ، ص: 780
22- بديع الزمان *سعيد النورسي*، الكلمات ، الكلمة الثالثة و العشرون . ص 355
23- بديع الزمان *سعيد النورسي*، صقيل الإسلام ، ص 24
24- بديع الزمان *سعيد النورسي*، الشعاعات ، *ترجمة إحسان* قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر ، القاهرة ، مصر ، ط 6 ، 2011 ، ص 18.
25- بديع الزمان *سعيد النورسي*، الشعاعات ، ص 110.
26- بديع الزمان *سعيد النورسي*، الشعاعات ، ، ص 627 .
27- د.طه عبد الرحمن : سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد ، ص 176 .
28- بديع الزمان *سعيد النورسي* : سيرة ذاتية ، ص:187-188.
29- بديع الزمان *سعيد النورسي*، مكتوبات ، *ترجمة إحسان* قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر ، القاهرة ، مصر ، ط 6 ، 2011 ،ص 604
30- بديع الزمان *سعيد النورسي*، الكلمات ، ص 343.
31- بديع الزمان *سعيد النورسي*، الكلمات ،الكلمة الثالثة و العشرون ، ص 361.
32- بديع الزمان *سعيد النورسي*، المثنوى العربي ، *تحقيق إحسان* قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر ، القاهرة ، مصر ، ط 6 ، 2011 ، ص 20.
33- بديع الزمان *سعيد النورسي*، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ، ص 258 .
34- بديع الزمان *سعيد النورسي*، *الملاحق* ، ص 405
35- بديع الزمان *سعيد النورسي*، الكلمات،ص 353-354.
36- بديع الزمان *سعيد النورسي*، اللمعات، ص 400.
37- بديع الزمان *سعيد النورسي* : سيرة ذاتية ، ص 313.
38- بديع الزمان *سعيد النورسي*، الشعاعات، ص 433.
39- بديع الزمان *سعيد النورسي*، مكتوبات ، ص 593 .
40- بديع الزمان *سعيد النورسي* : سيرة ذاتية ، 776
41- بديع الزمان *سعيد النورسي*، مكتوبات ، المكتوب الثاني والعشرون ،ص: 334-335
42- بديع الزمان *سعيد النورسي*، الشعاعات،الشعاع الرابع عشر ،ص 384.
43- بديع الزمان *سعيد النورسي*، الشعاعات ، ،الشعاع الرابع عشر ، ص 392 .
44- *أ . د. أحمد داود أوغلو :سياسة العالم الإسلامي في القرن العشرين في نظر النورسي ،النور للدراسات الحضارية والفكرية* - AL-NUR Academic Studies on Thought and Civilizatio
dergipark.ulakbim.gov.tr/alnur/article
45- بديع الزمان سعيد النورسي، الكلمات، ص: 137- 138 .
46- د.طه عبد الرحمن: سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد مرجع سابق، ص 190.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com